العرب بين نفاق الشعارات وسفه تطبيقها

د. فاضل فضة

■ قد يكون مهماً أن يأخذ الإنسان موقفاً في خضم الصراع الحضاري الدائر. بينما قد لا يكون مهماً أن يكون الموقف والرأي مخالفين لرأي الأكثرية، أو وسائل الإعلام الرسمية أو شبه الرسمية. لأن الحرية تتطلب من الجميع احترام الرأي الآخر حتى لو كان هذا الرأي في الاتجاه المعاكس. لقد اعتاد الشارع السياسي والفكري العربي على خطاب بمواصفات معينة، زرع البعض به ما يسمّى بالثوابت. أما إذا نظرنا إلى تطور الإنسان والبشرية في نظام الدولة والمجتمع بشكليهما المعاصرين، فإننا لن نعرف معنى الثوابت في أي قاموس، فكل شيء متغير حسب زمنه. كما اعتاد هذا الشارع ومنذ عصر الاستقلال في نهاية النصف الأول من القرن الماضي، سماع خطاب عريض اللهجة، بدون أي محتوى عملي، أو إجراءات ذات منهجية مدروسة. وأثبتت التجربة السياسية والاقتصادية لعديد من هذه الدول، أن الخطاب شئ والواقع العملي شئ آخر، لذا نشأت وعبر تواتر زمني مرهق أنظمة ملكية وجمهوريات، لا علاقة لها بأي من الشعارات الطنانة كالطبول، وأدت في ما أدت إلى نشوء أنظمة ذات صلاحيات أكثر من أية جمهورية أو ملكية في العالم. واليوم وبعد تغير المعادلات العالمية، ودخول الدول المتقدمة في مخاض تاريخي جديد، قد تكون البلاد العربية، وأنظمتها الهشة في مواجهتها للخارج، الضحية في نتائج هذا المخاض. ولماذا لا تكون نتائج المخاض المستحدث، مشابهة لأحداث القرن الماضي، كما حصل مع الدولة العلية العثمانية عند انتهاء الحرب العالمية الأولى. وفي هذا العالم المتوتر، الهادئ ظاهرياً، الذي يخفي بوادر غير متوقعة، بدأت بعض الأصوات العربية ترتفع، بعد صمت دفين مشابه لصمت القبور، تعلن تمردها على كافة المدارس الفكرية والسياسية التي نشأت وتطورت خلال القرن الماضي. مقابل أصوات الأكثرية. أصوات المطالبين بالحفاظ على الخطاب العروبي كما هو، وتفعيل الخطاب الديني بدنيوية متسائلة. معللين بمشاريع غربية جديدة هدفها البعد القومي العربي والثوابت الدنيوية للمواطن والمجتمع العربي في الممارسات الاجتماعية والثقافية وغيرها. وبسبب دوافع الخوف من تسرب ثقافة الغرب إلى العالم العربي الجديد، الذي يصاغ شكله ونوعه في أقبية الدول الكبرى. علت الأصوات القديمة الجديدة، بالهجوم والتهجم على من يسمون بالليبراليين العرب الجدد، المنادين بتغيير الخطاب السياسي والفكري، والاقتباس من تجارب الديموقراطية الغربية، أو الشرقية الآن. علت الأصوات التقليدية في النهج السياسي والفكري المعاصر، مستخدمة نفس الشعار الذي استهلك في منتصف الخمسينيات، وأدى وما زال إلى كوارث في معظم الأقطار العربية. ولم تتوقف مثل هذه الأصوات وفرقعاتها الإعلامية عند حدود الاختلاف بين التيارات المتعددة والمتباينة. بل تجاوزت الطعن التقليدي في أي فكر متجاوز لحدود الإعلام الرسمي أو الثقافي التقليدي، إلى الاتهامات الخطيرة غير المبررة، كالاتهام بالعمالة لدول أخرى، أو العمالة لأميركا والتنعم بالعيش في أحضانها، والاتهام الأسوأ، هو العمالة للصهيونية، وهنا المصيبة فعلاً. لأنها لغة لا تستند إلى أي دليل أو حجة، وتصدر ممن يمكن أن نسميهم مثقفين أو دكاترة أو إعلاميين معروفين أكثر من اللزوم!! كما أنها مصيبة، كونها تصدر عن كتاب من المفروض أنهم يؤمنون بمفاهيم الحرية والديموقراطية بشكلها المعاصر (أي الديموقراطية والمساواة) وما نسميه بحقوق الإنسان. لكن وكما يبدو أن التعابير الأخيرة في الديموقراطية والمساواة والحرية وحقوق الإنسان، لا تختلف في نظر العديد من هؤلاء التقليديين عن شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية، وهي الشعارات التي آمن بها كل من الأحزاب القومية والعروبية بكل أطيافها. وهي أيضاً شعارات لم يمارسها الفرد

والمواطن العربي عملياً، ولم تسنح الفرصة لأي مجتمع عربي بسياسييه أو مثقفيه أو بمواطنيه العاديين البسطاء ممارستها أبداً في تاريخهم المعاصر. لذا ستبقى هذه المفاهيم مؤطرة نظرياً وليس عملياً في عقل إنسان. ولن تكون إلا موجات عاطفية مشابهة للأغاني الحماسية التي ألهبت الشعوب العربية المغلوبة على أمرها في عديد من حروبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية الخاسرة أبد الدهر المعاصر. وما معنى الحرية هنا، وضمن أي سياق يرغب البعض حصره؟ ألا يحق لأي مواطن هنا، مقيم أو مغترب، ليبرالي جديد أو قديم، أن يفرغ ما في جعبته بدون قيد أو شرط. بدون أن تنهال الاتهامات عليه بأية عمالة، فقط، لأنه مختلف بالرأي والمنهجية مع مذيع تلفزيوني أو إعلامي رسمي أو غيره. وما معنى الثوابت في العروبة والإسلام الدنيوي، ولماذا لا يقدم أصحاب هذه الثوابت مشاريعهم المعاصرة لبناء دول حديثة حضارية، تحقق للإنسان المواطن حقه الأول في العيش بكل كرامة معنوية أو اقتصادية، بدلاً من الشتيمة في اتجاهات غير معروفة أو معاكسة. ومن هو المخترع العظيم الذي سيختصر تاريخ البشرية ويعيد صياغتها عبر احتقان سياسي وقهر مجتمعي وذل المواطنين لعقود أخرى، في شعارات دمرت الأوطان العربية. قد لا يستوعب من لم يجرب الحرية عملياً، أنها أن يقول الإنسان ما يشاء، ضمن حدود ومعايير حقوق الإنسان ومفاهيم الديموقراطية والمساواة في أرقى صورها، بدون اتهامات لا معنى لها. سببها اختلاف الرأي ووجهات النظر. كيف نؤمن بحرية الفكر لأي مواطن عربي أو غير عربي في أية دولة عربية، قبلنا آراءه وأفكاره أم لم نقبلها، كانت هذه الآراء مسلمات للثقافة التقليدية أم لم تكن! وكيف نسعى إلى قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان وحق المساواة الوضعي، بين أبناء الوطن، لاحق ديموقراطية الأكثرية فقط، التي قد تغتصب حقوق الأقليات تحت أي مسمّى أو ثوابت؟ ألم يحن الوقت للخروج من شعارات الضباب الكثيف، التي خدمت وما زالت، فئات على حساب فئات أخرى، وإن كانت هذه الشعارات ثوابت لأي مجموعة أو أكثرية أو أقلية في أي دولة عربية؟ ألم يحن الوقت للعمل على مشروع حضاري يقدمه من يملك الأمانة والمصداقية وشفافية القول والعمل للدولة العربية الحديثة. بدلاً من الاستمرار في سياسة أحلام الدولة (الشعار)، عروبية كانت أو إسلامية، وصرف الجهود في قضايا لم ولن تثمر. من مصائبنا الكبرى أن العديد من المثقفين العرب يتحدثون عن مفاهيم الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، ولم يجربوها. كما أنهم لا يعرفون معنى أن يمارسها الإنسان عبر عقود وعقود. لذا يصرون على تأطير هذه المفاهيم وتحديدها بقوالب لا تخرج عن لغة الخطاب السياسي الوصولي، الذي أدى إلى ما نحن عليه في بلاد الغرب الديموقراطي، والشرق الديموقراطي.

في هذا العالم الذي لا يحبه البعض، يمارس الإنسان حياته بكل أمان وسلام. يمارس الإنسان، حقه الفكري والسياسي والثقافي بحرية عملية، لا يحدها إلا دستور وقانون مطبق على الجميع بدون أية تفرقة أو تمييز. في هذا البلاد، لا يخاف الإنسان من الاتهامات والإشارات المعاكسة، لأنها غير موجودة، إلا بالدلائل. ومع ذلك لا بد من الصبر على اعتصام البعض في أرض الوطن على خطاب العواطف والشعار والثوابت، وضعف الحجة القرينة بالاتهام والاتهام المعاكس، أياً كان شكله ومحتواه. لو كان البعض منا يحمل في ثقافته، معاني الأمانة والمصداقية وما سميناه بشفافية القول والعمل، لكانت النخب العربية قد أدت أكثر من واجبها وقدمت الآن أكثر من مشروع حضاري، أو لكانت في طور تنفيذ مثل هذه المشاريع. لكن الأمانة، كانت وما زالت لدى المزيفين شعاراً، والمصداقية عملة غير نافعة، لذا لا بد من القيام بحروب التتار، على أرضية مزروعة في رمال الصحراء، وتيارات إعلامية، في جزيرة كان من المفروض منها أن تكون المنارة، لا تيار الأدلجة السلفية والمعاصرة. اغتصبت المنارة المفترضة، والمشروع الحر في بناء قيم الإنسان العربي الجديد، اغتصب عبر معايير الولاء واللامبالاة، كما اغتصب الحلم العربي في منهجية الارتجال والشعار العروبي، غير الميرمج، أو الشعار الدنيوي من أصولية لم تثمر شيئاً.

أفلسنا في الحوار، البارحة واليوم وغداً، أفلسنا في الثقافة والسياسة، والتطبيق، وما زلنا نكابر، أفضلنا، ممثل بارع، وخطيب نفعي، بواقع مغيب، صوموا عن الكلام، فقد يفيد الصوم، مارسوا العمل والبناء، ولو كان بناء هشاً، مارسوا الحياة في بساطة العيش، ومارسوا الحب في مصالح اليوميات، اخرجوا من ثيابكم فقد اهترأت من رماد الكذب الأبيض والأسود، ابحثوا عن الشمس في الشرق القديم، الذي كان عظيماً في رجاله ومفكريه وأنبيائه، لا في تشوهات الزمن وبقايا عصور الانحطاط والجهل والتخلف، في أنانية لا معنى لها، في أي قاموس حضاري وإنساني عملي ليس أكثر..

❖ مونتريال - كندا

ألم يحن الوقت للعمل على مشروع حضاري يقدمه من يملك الأمانة والمصداقية وشفافية القول والعمل للدولة العربية الحديثة. بدلاً من الاستمرار في سياسة أحلام الدولة (الشعار)، عروبية كانت أو إسلامية؟

فساد الأزمنة

من، متى، كيف .. أسئلة حائرة!!

حسين السامرائي

■ أواخر الستينيات من القرن الماضي، كانت الفوضى تعم فرنسا بسبب صراعات سياسية توجتها الاضرابات الطلابية على مختلف مستوياتها الدراسية، وساد شوارع العاصمة باريس اضطراب وتوتر كبيران بسبب المظاهرات الصاخبة التي أدت إلى توقف العديد من مرافق الحياة الضرورية وامتلأت شوارع باريس بالقمامة والأوساخ وبالحجارة التي كان يرشق بها الطلبة الغاضبون المراكز الحكومية التي يمرون من أمامها أو رجال الشرطة الذين يحاولون عبثا منعهم من التقدم بالمظاهرات الواسعة.

الحكومة الفرنسية آنذاك والشعب الفرنسي كانوا يراقبون الأوضاع وينتظرون ما يقول الجنرال الراحل شارل ديغول.. وبعد بضعة أيام من الفوضى العارمة التي عمت باريس وضواحيها حيث لعب فيها الطلبة الدور الرئيسي بمختلف انتماءاتهم الحزبية والسياسية، أعلن رسمياً أن الجنرال ديغول سيلقي خطاباً مهماً، وستذيعه جميع وسائل الإعلام.. وذات مساء وقف ديغول متحدثا إلى الشعب الفرنسي.. ثم طلب بلهجة عسكرية آمرة وصارمة من الطلبة أن يعودوا اعتبارا من صباح الغد إلى مقاعد الدراسة ويركنوا إلى الهدوء.

وساد الصمت، وفي جو من الصمت والهدوء أيضاً دبت في الشوارع حركة نشيطة لرفع الأنقاض والنفايات، وسرعان ما عادت باريس إلى حالتها الطبيعية، وعاد الفرنسيون كل إلى حياته وعمله بطاعة واقتناع بما حمله خطاب الرئيس ديغول.

ما دعاني إلى استذكار تلك التجربة النادرة هو حال العراق الآن وما وصل إليه من ترد في جميع الميادين، وإذا كان الأمس أفضل من اليوم، واليوم أفضل من الغد، فإن أوضاعنا لا توصف ولم تشهد لها مثيلاً من قبل.. فأين هي الشخصية القادرة على وضع حد للتدهور في ميادين الحياة؟ ومن سيطيع كلمتها؟ بل أين هي القوة التي تفرض على الجميع الامتثال إلى صوت العقل والمنطق.. متى سيتوقف نزيف الدم؟، ومن الذي سيوقفه؟ قادة الحكومة؟! قادة الجيش؟! قادة الأحزاب؟! أم قادة المذاهب والاجتهادات الدينية؟!

ألم يسمع هؤلاء جميعاً أن المواطن في كل مكان لم يعد قادراً على حفظ حياته وعياله وماله؟! ألم ينتبه هؤلاء بعد إلى المخاطر المحدقة بكل واحد منهم والاحتمالات التي قد تطيح بحياتهم مثلما أطاحت بحياة غيرهم؟؟

ربما ارسم الآن صورة قاتمة متشائمة للوضع الراهن في العراق، ولكن أليس ما أراه هنا يراه المواطن أيضاً وربما بصورة أكثر بشاعة؟ لا أرى ولا أسمع أنين العراقي وجزعه من الأوضاع التي تزداد تدهوراً، لكنني أعيش وأتفاعل مع أنين الناس وأوجاعهم، وأدعو الله ان يمنحنا مزيداً من الجلد والصبر حتى يأتي يوم نلقى فيه من ينقذ البلاد ويوقف معاناتها بومضة عين وقدرة خارقة.. ولكن من، ومتى، وكيف؟؟؟؟.

husain5552000@yahoo.com